شيء قديم

السلطنـــة

« مع سلام الله ورحمته وبركاته إلى فضيلة الأستاذ عبد الفتاح خليفة ، مفتش الخط للتصوف بوزارة المعارف العموميـة »

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

الذين يسمون الغناء فى هـذه الأيام معذورون إذا كانوا لا يعرفون ما هى السلطنة ، وهم معذورون أيضاً إذا سخروا من ذكرها وحسبوها رقاعة قديمة كان المغنون القدماء يصطنعونها تهريجاً منهم وتحلية لبضاعتهم ، وكان الجمهور القـديم يحتملها صبراً منه ، وتضييعاً لوقته الطويل الرخيص الذى لم يكن ينتفع منه بشىء ...

وهم معذورون فى هذا وذاك لأن السلطنة قد انعدمت من عند المغنين فى هذه الأيام أو كادت تنعدم . والجمهور اليوم يسمع عنها — إن كان يسمع عنها — فلا يتصورها إلا نوعاً من أنواع التحكم الثقيل المملوت يفرضه المغنى فرضاً على جمهوره تيهاً منه ودلالاً واستكباراً ، فقد قيل لهذا الجيل إن المغنى القديم كان لا يرد إلى المـكان الذى سيغنى فيه إلا بعد أن تمضى من الليل ساعات . . .

وإنه بعد هـذا كان يطلب خمراً أو شيئاً آخر غير الخمر يقلب به دماغه ويغيب به عن وجوده ، وإنه بعد ذلك كان يرجو أن إنساناً حلواً يقرب منه ليشاهده وهو يغنى ، وهو فوق هذا وذاك كان يصر على أن يصحب معه نفراً من الناس لا هم عازفون ولا هم مغنون وإنما هم مستمعون فقط يحبهم ويؤثرهم ويجرهم وراءه من حفلة إلى حفلة ، ويجرون هم وراءه من فرح إلى فرح ، والواحد منهم يعدل عنده ألفاً من وجهاء الناس الذين يدعون إلى سماعه والذين يجاملونه بالتطييب الرقيق والتشجيع الناعم . . .

وإنه بعد هذا كله لم يكن حضرته يغنى إلا إذا تسلطن ، وهو لا يتسلطن إلا بعـد أن يقضى أفراد تخته زمناً طويلاً فى تصليح آلاتهم ، وبعد أن يعزفوا بشرفاً ، وبعد أن يغنوا توشيحاً ، وبعد أن يقسم صاحب العود بعوده تقسيمات كثيرة أو قليلة ، وبعـد أن يتلوه صاحب القانون فيقسم هو أيضاً تقسيمات كثيرة أو قليـلة ، وبعد أن يعقبه صاحب القـانون فيقسم كذلك تقسيمات كثيرة أو قليلة ، وربما بعد أن يغنى واحد من أفراد التخت أغنية طويلة أو قصيرة ، هذا كله وبعد طلوع الروح يبدأ حضرة المغنى فيغنى ، فإذا نشط فى غنائه قيل إن حضرته تسلطن

هـذه هى الصورة التى يتصورها أهل هـذا الجيل عن السلطنة ، وهى صورة تنطبق على الحق وعلى الذى كان واقعاً ، وإذا كان أهل هذا الجيل الذى نعيش فيه يكرهونها ويسخرون منها ولا يطيقون أن يرزأوا بها فإنما ذلك يرجع إلى أنه قد فاتهم تعليل كل ظاهرة من ظواهر هذه الصورة ...

ولو أنهم عرفوا لأى سبب كان القدماء يحبون السلطنة من المغنين ويستجدونها منهم استجداء ويتكلفون تهيئتها لهم تـكلفاً قد يرهقهم فى أغلب الأحيان ...

لو عرفوا هذا . . . إذن لأصغوا لأنهم قد حرموا اليوم ألذ متعة فنية قضى عليها جيلنا الحديث التعجل الذى يستمع الناس الغناء فيه وكأنهم راكبون فى قطار ، يمدون على المغنى أغانيه كما يمد ركاب القطار عليه المحطات ؛ ويهرعون إليه قبل موعد الستار كما يهرع الركاب إلى القطار قبل موعد القيام ، وينفضون عنه بعد الوصلة الأخيرة كما ينفض الركاب من القطار فى محطة الوصول ...

فلا تذوق ، ولا استسلام ، ولا واحد من المستمعين هؤلاء يتأخذ بالغناء ، ولا واحد من المغنين هؤلاء ينزو نفساً من نفوس مستمعيه . . . وإنما هو « سلق بيض » كما يقول عامتنا الحكماء . .

كان المغنى القديم لا يحافظ على ساعة محددة يحضر فيها إلى الحفلة ، وإنما كان يجعل موعده ليلة الحفلة بأكملها ، فيحضر إليها وقتما يحضر . قد يبكر وقد يتأخر غير متعمد تبكيراً ولا تأخراً وإنما الذى يتعمده هو أنه لا يذهب إلى هؤلاء الناس الذين جاءوا ليستمعوه إلا بعد أن يستوفى راحة بدنه على الأقل ، بأى صورة ما من صور الاستجمام تريحه هو .

ثم إذا جاء إلى مكان الحفلة طلب الخمر أو غير الخمر من قالبات الدماغ ، لأن الغناء عورة من عورات النفس ، لا يسهل على الإنسان أن يكشفها لغيره وهو يقظ منتبه إلا إذا كان فاجراً ، فإذا كان فاجراً لم يكن مغنياً ، لأن الغناء فن يستلزم فى النفس حناناً ورقة ورحمة وشوقاً وأملاً ولهفة ورجاء وحباً وعطفاً ورضا وتضحية ، وكل هذه عواطف بعيدة عن نفوس الفجار ...

فإذا انقلب دماغه واستخفته الخمر وغاب عن رشده وهان عليه أن يفضح نفسه وأن يكشفها عارية للناس ، لم يرضه أن يكشفها لكل الناس ، وإنما يرضيه أن يتعرى أمام الذى يعجبه هذا العرى ، والذى يرحم هذا العرى ، والذى يستجيب لهذا العرى ، والذى يكشف بالسماع من نفسه مثلما يكشف المغنى من نفسه بالغناء ...

وهذا هو الإنسان الخلو الذى كان المغنى القديم يطلبه قريباً منه ليشاهده ويغنى له ، وليتغنى به أنه قد تعرى أمام جمهور من الناس

والخلاوة فى الإنسان تختلف ، ولكل مغن ذوق هو ناشئ من تكوين نفسه ، فكما كانت خلاوة روحه كانت خلاوة مشهده . . .

والناس أجسام هى صور لأرواح محبيهم وعشاقهم ...

ولا ريب أن هذه حال تشبه أن تكون موقعة بين المغنى ومشهده الخلو ، والواقع لا بد أن يحضرها شهود ، والشهود هؤلاء ليست مهمتهم الحكم على المغنى فى آخر الليل بأنه انتصر أو بأنه فشل ، وإنما مهمتهم أن يرقبوه وأن يرقبوا سامعه ، وأن يتابعوهما بالإيحاء والتنبيه والتحريض و « تسجيل النقط » والتحميس والتطييب وغير ذلك من وسائل تفتيح النفس وإرهاف الحس وإشعال الروح . . . وهؤلاء الشهود هم أولئك المستمعون الذين يجرهم المغنى وراءه من حفلة إلى حفلة ، والذين يجرون وراءه من فرح إلى فرح . وهو يحبهم وهم يحبونه . أما هو فيحبهم لأنه يشعر بأنهم يتلقون خفقات نفسه ووثباتها فلا تضيع منها خفقة فى الريح ، ولا تذهب منها وثبة إلى العدم ، فهم مسكن روحه ومأوى نفسه ونصراؤه المستجيبون له . وأما هم فيحبونه لأنهم يرونه كأنما هو قائدهم ، إذا أنّ فكما كانوا يريدون أن يئنوا هم لو أن نفوسهم تفتحت تفتح نفسه ، وإذا حنّ فكما كانوا يريدون أن يحنوا هم لو أن نفوسهم فاضت كما تفيض نفسه ، وإذا هم فكما كانوا يريدون أن يهموا هم لو أن نفوسهم فزعت وارتعشت كما تفزع نفسه وترتعش . . . هم من لونه وهو من لونهم ولكنه أشدهم تميزاً فى لونه ، وأشدهم تمكناً من لونه ، وأشدهم انطباعاً على هذا اللون ..

هم جمهوره ...

فإذا جاء المغنى إلى مكان الحفلة أو الموقعة ، وتسلح بالخمر ، واستحضر شهوده ، وواجه غريمه الخلو الذى ينتصر له الحاضرون جميعاً ، والذى تجتمع مع روحه أرواح الثلاث من المستمعين قاصدة تعزيزه ، أو غير قاصدة وإنما تعززه بطبيعة الفضول المنساب منها إلى روح المغنى يناوشه ويهاجمه ويقلقه . . .

إذا ما كان هذا استنجدت روح المغنى بأرواح أفراد فرقته وهم جيشه ، فما تلبث هذه الأرواح حتى تهب له ملبية ، ولكنها قبل أن تبدأ الهجوم تستشير فيما بينها إن بالكلام

وإن بالصمت عن موضع الضعف الذي يمكنها منه أن تبدأ الغزو ، فإذا لمست في الغريم ألماً وشجواً أرسلت إليه الحنين « سيكا » ، وإذا أحست منه استعصاء وصلابة رققته بالحجاز ، حتى إذا ما اتفقت على مدخل روحه من أين هو ، أرسل المغنى وهو القائد أول رائد من رواده يناوش الغريم فإذا هي تقسيمات من الكمان أو القانون ، هذه التقسيمات ليست إلا ومضات من الروح تمرض على السامعين وعلى رأسهم السامع المقصود بالذات ، وهو كما علمنا من البدء ممشوق للمغنى بالفعل أو بالقوة ، فبينه وبين المغنى وأفراد جيشه وشهوده تلاؤم وتعارف مستكنان ، وود متحفز للانطلاق ، فإذا لم يقو على إطلاقه الرائد الأول بالكمان ، استثاره الرائد الثاني بالقانون ، فإذا لم يقو عليه هذا أيضاً نكثه الثالث بالعود ، ثم كان البشرف كالنفير الذي ينفخ فيه نداء وتحفيزاً ، ثم كان التوشيح كالمارش الذي يعزفه الجيش في أول الهجوم ، ثم يبدأ المغنى بعد ذلك يسدد طعناته طعنة في كل « ليل » يهتف بها ، وفي كل « آهة » ولكل ليل معنى يتضمنه نغمها ، ولكل آهة رجع مبثوث فيها ، وليست هي أشكال صوتية صماء خالية من المعنى والروح كهذه الآهات والليالي التي نسمعها اليوم فلا نعرف إن كان فيها فرح ، أو كان فيها يأس ، أو كان فيها رضا ، أو كان فيها هم ، أو كان فيها غم

ويبدأ الهدف الحلو يضعف ويتساق ، ويبدأ المغنى يعلو ويتمكن ، ويجر الهدف الحلو وراءه تابعاً ، ثم تابعاً ، وأفراد الفرقة والشهود يجذبون هم أيضاً الأتباع أفواجاً أفواجاً ... حتى يشعر المغنى بأنه لم يعد يتحرج ولم يعد يخجل من أن يكشف نفسه لأمة لا لفرد، فكل عيوب نفسه الآن فضائل ما دامت لها أصداء في نفوس الناس جميعاً وما دام هو وحده القادر على نثرها مستطابة مشتهاة ... لا يقصد منها قضاء الوقت ، ولا تحصيل الأجر ، فما خلف واحد من هؤلاء ثروة ...

عندئذ ، وعند ما تكمل له السيطرة على هذا النحو . . . يقال إنه تسلطن ، وهو في الحق تسلطن على كل من في حضرته فما ينفذ من سلطنته إنس ولا جان ... إلا لسلطان

وهذه حال لا يشبهها إلا حال الشيخ أو الإمام مع أتباعه . . .

ولكن أي إمام ؟ . . . إمام من غير المحترفين . . . قلبه يعرف الله . . .

عزيز أحمد فهمي

مجلس مديرية الغربية

يعلن عن توريد الأقمشة اللازمة لغلمان ملجأ البنين العباسي بطنطا والأغذية اللازمة لمستشفى رمد السنطة ومستوصف الأمراض الصدرية بطنطا والمهمات اللازمة لمستشفى رمد كفر الزيات — وترسل البيانات والشروط لمن يطلبها على عرضحال دمغة نظير مبلغ ٥٠ مليا عن مناقصة أقمشة ملجأ البنين وأغذية مستشفى رمد السنطة ومهمات مستشفى رمد كفر الزيات و١٠٠ مليم عن مناقصة أغذية مستوصف الأمراض الصدرية . وتقدم العطاءات مصحوبة بتأمين ٢ ٪ لغاية يوم ٨ ديسمبر ١٩٤٠ بالنسبة للملجأ و١٥ ديسمبر بالنسبة للمستشفى والمستوصف و١١ ديسمبر بالنسبة لمهمات رمد كفر الزيات . والمجلس حر في قبول أو رفض أي عطاء .

٧٥١٦